نـافـذة

الدفاتر العتيقة!

عندما يُجدب الإنسان يبدأ العودة إلى دفاتره العتيقة، وقد برع العامة الذين نظن أنفسنا أكثر معرفة منهم في تصوير هذه الحالة من العجز الفظيع، يدوّر على دفاتره القديمة، أو بتعبير آخر، وما ذلك إلا لاستعراض بطولات مضت، قد تكون هذه البطولات حقيقية، وقد تكون غير حقيقية، والأمر سيان، فإن كانت حقيقية فقد مضى زمنها، وليس بإمكان هذا السيد أن يوقف التاريخ، فما بالنا أن يعيده وأن يجعل الزمن متراجعاً خطوات إلى الوراء، وقد تصل إلى عقود!! وإن لم تكن هذه البطولات حقيقية كان الأمر أكثر رحمة وسهولة، لأن من يستعرضها يحمل روح النكتة والتسلية، ولا يريد منها مآرب أخرى، المهم عنده أن يتحدث الناس بما فعل ولو من باب التندر، ولو في قضايا مرذولة وعادية وتافهة! أما المشكلة الكبرى فهي عند ذاك الذي عاش شيئاً من منجز ثم ركن إلى العجز والهدوء والسكينة، ويريد للزمن أن يتغنى بمنجزه السالف، بل أن يقف عند عطساته التي كانت قبل عقود، ولا يؤمن بأنها تعفنت وتجاوزها الزمن، وتبلغ المفارقة مداها عندما يكون ذلك المنجز هو الحقيقة في نظره، فلا أحد يملك الحقيقة سواه! ولا أحد يعرف كما يعرف هو!

وترتفع وتيرة هذه الخطورة عندما يكون الأمر ثقافياً، فهذا قاص لا يجاريه أحد بمجموعة خرجت من رحم المصادفة، وذاك كاتب زاوية لا يشق له غبار من زاوية سطرها وداعبت أحلام بعضهم، وثالث آراؤه السياسية التي كانت من الخمسينيات لا تزال صالحة في القرن الحادي والعشرين، وكل الناس لا يفهمون! بل إن أحدهم يتجاهل هيكل وينعته بالإكثار، ويرى أن هذه الكثرة على حساب الجودة! وإذا ذكر كاتب مبدع فإنه لا قيمة له أمامه، فهو وحده القادر على أن يكون مقدساً نصه يمكن أن يصلي به المصلي على أي دين كان أو أي مذهب أو أي طائفة!!

إذا كان المثقف بهذه المرتبة من التصنيف التي يفقد معها المصداقية، فما بالنا بغير المثقف؟! إذا كان من فتح نوافذه للشمس بهذا الدرك من التصنيف والانتماء فماذا نقول في الآخر الذي لم يطلع ولم يقرأ؟ ماذا نقول فيمن لم يعرف طاغور وغاندي ولوركا وسارتر؟ الأمر أخطر مما نتخيل، وخاصة عندما نجلس مع مثقفين كان من المفترض أن يكونوا هداة، ومنارات، ونجد أحدهم يتبع هذا التصنيف المقيت للغاية! فمن ينتمي إليه هو الحق والصواب ولا شيء سواء، والذي لا ينتمي إليه، وإن كان مبدعاً حقيقياً فإنه لا قيمة له!

فهذا يحمل صورة فلان، ويحمل عبارة له، لمجرد أنه ينتمي إليه! وذاك ينتظر عطسة من يشاركه الانتماء ليمتدح ويطنب، فلا المتنبي له منجز أمامه! ولا نجيب محفوظ تقدم خطوة في الرواية أمامه! ولا ماركس وإنجلس ولينين عرفوا مجتمعين ما يعرفه العاطس!! وهذا يرى أن الآخر هرب في الأزمات، ويرى الحق مع المنتمي إليه، لأنه يخاف! هذه المنظومة بحاجة إلى نسف تام، فلا يصح أن نقول لفلان تخلّ عن انتمائك، والانتماء متأصل فيه وفي كل ثنية من المجتمع، ولا يكون ذلك إلا عن طريق واحدة لا ثاني لها، وهي تعزيز فكرة المواطنة، فالمواطن هو الأساس، والمواطنة هي الهوية، والمدنية هي السبيل الوحيد لحياة مثلى وعظيمة، وقادرة على الاستمرار، فلا دعوة إلا الدعوة إلى الوطن، والشريك الحقيقي هو شريك الوطن، لا شريك العقيدة والأيديولوجية والمنطقة، فالعقيدة وراثة، والأيديولوجية رأي، والمنطقة مسقط رأس أو مكان حياة، أما المواطنة فهي الهوية، والصدق في التعاطي مع الآخر هو المطلوب، لا التمثيل والمجاملة، إذ لا يجوز أن أجاري فلاناً، لأنه ليس مطلوباً، وبعد أن يغادر تبدأ مرحلة الشتم التي لا تنتهي، والذي لا يدريه هذا أنه يخسر كل شيء عندما ينتقص الآخر، وأول من يخسر نفسه عنده هو الذي ينتمي إليه ويسمع كلامه، ويستفيد من مكانته!

وأذكر حادثة طريفة مؤلمة، ذكرها لي صديقي «الآغا» فقد جلست معه منذ شهر، وتبادلنا أطراف الحديث بوجود أشخاص، وعندما تشعب الحديث إلى الحاضر، غيّرنا دفة الحديث، ودخلنا في أحاديث أكثر فائدة، وحين غادروا قال لي صديقي ذكرتني بحادثة حقيقية مفادها:

منذ أكثر من ثلاثين عاماً تلقى أحد الدعاة المعتدلين، وثمة اعتراض على سمة الاعتدال مني، إلى محاضرة جامعة، وهذا الشخص يعترف بالآخر كما يبدو، ولم يكن بحاجة إلى تصنع، لكنه من التوحيديين، الذين يؤمنون بالديانات الثلاث التي تحمل كتاباً، وتوجه الداعي إلى مكان اكتظ بالمستمعين فتحدث عن وحدة العقائد وأطنب، وتحدث عن اليهودية حديثاً طيباً، وميز بين اليهودية والصهيونية، وبرأ اليهودية من الدعوة العنصرية، ثم تناول الجانب المسيحي، فتحدث عما يوحد ولا خلاف فيه، وأسهب في قدسية العذراء البتول، وفي الحديث عن يسوع، وامتدح جميع الطوائف شرقية وغربية، ولم يتطرق إلى الإنجيل إلا بالتقديس، وثم تحدث عن الإسلام ومذاهبه، وكلها مذاهب جليلة ومحترمة، وأطنب في الحديث عن أن الاختلاف غنى ولا علاقة له بالخلاف الذي يفرق! ولم ينس الداعية أن يمتدح الجميع بما في ذلك الأيديولوجيات السياسية، ووضع اللوم كله على الشيطان وإبليس، وشتم النار والدمار والخراب، وحين انتهى قوبل بعاصفة من التصفيق، وحين جلس مع من دعاه سأله إن كان موفقاً في عرضه، فقال له ذاك: كل شيء على ما يرام، المحاضرة أجمل ما يكون، ولكن ما لنا وللشيطان، وإبليس والنار، فغر الداعية فاه عجباً، فتابع ذاك: لا تعجب سيدي، فهناك من الحاضرين من يقدّر الشيطان ويحترمه، وهناك من يرى إبليس صنو الذات ومتحديها، وهناك من يقدّر النار ويراها فوق كل شيء!!

إذاً ذهب الداعية إلى لقائه وهو مدجج بالحجج له ولمن ينتمي إليه، وللآخر وما ينتمي إليه، لكنه على الرغم من كل ما بذل من جهود خارقة لم يوفق في تحقيق إجماع، والإجماع أمر محال، وهو يدرك أن المولى سبحانه لم يحقق إجماع الناس والمخلوقات من إبليس إلى الملحدين!

أستحضر هذه القصة وما فيها للاستدلال على أن الداعية كان بإمكانه أن يختصر محاضرته وكلمته ببضع كلمات، وأن أي واحد منا، يمكن أن يختصر جهده وحياته ومماحكاته بكلمات بسيطة هي الوطن والمواطنة والمواطنية، وهذا يجنب أي واحد الحرج، ويجنبه المفاجأة حين يقول: لم أكن متوقعاً فلاناً كذا، ولم أكن متوقعاً وجود هذه أو ذاك من التيارات الفكرية!

الدفاتر العتيقة بحاجة إلى أمر واحد هو الإتلاف، سواء كانت الدفاتر فردية أم تعبر عن جماعات، فما فائدة أن أستذكر ذاتي قبل خمسين عاماً؟ وما الفائدة التي أجنيها من نشر أمر قاله أحدهم قبل عقود أو قرون؟ الفائدة الوحيدة شخصية وتنتهي بكوارث اجتماعية ومجتمعية!

لا نحتاج اليوم إلى رفع شعارات المدنية والعلمانية والدينية، وما شابه من مصطلحات، فطرحها يعزز الأزمة، ويظهر الخلافات الكبيرة، وخاصة عند التخندق الذي يمارسه هذا وذاك مع أو ضد! الشعارات مرحلية، والشعارات تفرّق، الشعار الوحيد الذي يصلح هو المواطنة والعمل الجاد على تعزيز المواطنة، لئلا نكتشف بعد مرحلة من الزمن أن الشعارات لم تقدم شيئاً، فقد ألغيت صفة الديانة من البطاقة الشخصية، وبعد عقود نكتشف أنها حذفت من البطاقة لكنها سكنت الجوارح، وخرجت في الساعة التي تشاء.

إسماعيل مروة

الفن السوري وملامح النضال في عيد الجلاء

مسلسلات وثقت بطولات الثوار زمن الاحتلال الفرنسي وأغنيات تغنت بالملحمة الكبرى

رسالة وطنية لدحر الاستعمار وانتزاع الاستقلال

وائل العدس

لعب الفن السوري دوراً بارزاً في مواجهة الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى لوطأة جنوده أرض الوطن، فقاوم بالكلمة واللحن حتى انتزاع الاستقلال، ثم وثق بطولات الثوار أمام الاحتلال في مسلسلات درامية.

وتنفرد سورية بمفهوم الثقافة عن مثيلاتها في مناطق أخرى بخصائص فرضتها حقائق استثنائية تمثلت في وقوعها على خط المواجهة أمام أعداء الإنسانية الذين دأبوا على شن حروب ظلامية، فشرعت دوماً في مواجهة المشروع الاستعماري بالتأكيد على الهوية الثقافية، هذه الهوية تشمل عناصر مختلفة، وتجمع بين أنماط حياة مميزة وبين الفنون والثقافة التي نتميز بها، كما أنها تتعلق بالدراما والموسيقا والمسرح والرقص والشعر والفلكور.. إلخ.

كثير من المسلسلات والأغنيات رصدت جلاء المحتل عن سورية، نوردها لكم عبر السطور القادمة:

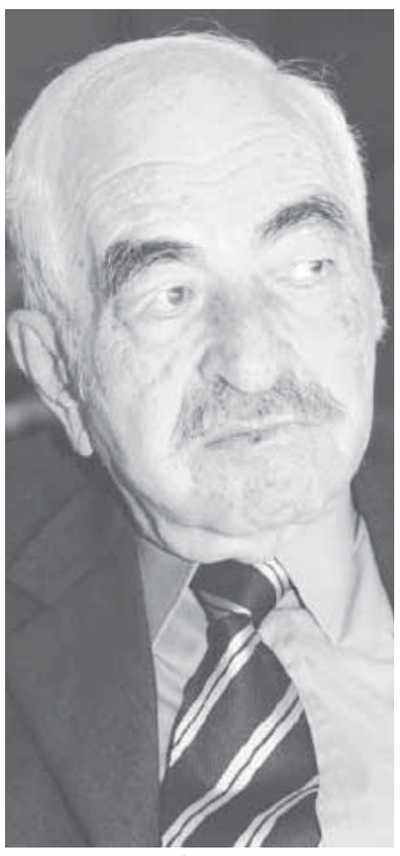
عبد الرحمن آل رشي

سعاد محمد

رفيق سبيعي

انتزاع الاستقلال

لعل أشهر الأعمال التي رصدت تلك المرحلة المفصلية من تاريخ سورية مسلسل «هجرة القلوب إلى القلوب» (١٩٩١) الذي كتبه عبد النبي حجازي وأخرجه هيثم حقي، حيث يتكلم عن بلدة صغيرة اسمها «الركنية» ويوثق من خلال هذه القرية الواقع السوري في الفترة الزمنية مع بداية الثلاثينيات من القرن الماضي ويمر على الصراع بين المجتمعين البدوي والحضري ومن ثم يتكلم عن انعكاسات الحرب العالمية الثانية على السياسية السورية في ذلك الحين وقيام الثورة السورية الكبرى وانخراط جميع شرائح المجتمع بها ومن ثم خروج المستعمر الفرنسي من البلاد وانتزاع الاستقلال منه ويشير الى دور الأشخاص المتلونين من الشعب السوري الذين ساهموا باستمرار في نشر الأفكار الاستعمارية رغم خروج المستعمر، ويظهر من جهة أخرى قوة الشعب عبر تماسكه والتحامه لمجابهة الاستبداد.

وأدى أدوار البطولة: خالد تاجا، وبسام كوسا، ويوسف حنا، وسليم كلاس، وحسن دكاك، وأسعد فضة، وعباس النوري، وسمر سامي، وعدنان بركات، ومنى واصف، وهاني الروماني، وأيمن زيدان، وعارف الطويل، ونجاح حفيظ.

بطولة شعب

كما أن مسلسل «أيام الغضب» (١٩٩٦) الذي أخرجه باسل الخطيب تناول مرحلة بداية الاستعمار، ويذهب إلى قرية سورية ليلقي الضوء على بطولة الشعب في مقاومة المستعمر الفرنسي.

ويدور العمل حول (ضرغام)، الرجل الذي أراد أن يعيش حراً، فقرر من بين همساته وصرخاته أن يستقطب أهل بلدته ويُحيي بداخلهم أسمى القيم الوطنية والإنسانية لمواجهة الواقع الجديد الذي يفرضه الاحتلال الفرنسي عليهم، ونشهد رحلته بما زخرت به من عقبات وعوائق.

ويؤدي أدوار البطولة فيه: خالد تاجا، وأيمن زيدان، وفرح بسيسو، وعابد فهد، وأنطوانيت نجيب، وأحمد رافع، وغسان مسعود، وجيهان عبد العظيم، وشكران مرتجى، ووائل رمضان، وتوفيق اسكندر، وعبد الفتاح المزين، وكارمن لبس.

أرضية تسجيلية

وأيضاً «حمّام القيشاني» (الأول عام ١٩٩١) الذي كتبه دياب عيد وأخرجه هاني الروماني في خمسة أجزاء، وهو دراما اجتماعية سياسية تجري أحداثها على أرضية تسجيلية لواقع من تاريخ سورية منذ قصف دمشق والبرلمان قبل إعلان الجلاء بأشهر وحتى تسلم الكتلة الوطنية الحكم بعد سنوات.

يبدأ العمل قبيل الجلاء، وحفل بشيء من التشويق من خلال محاولة أبناء أحد المتعاونين مع الاحتلال تنظيف صفحة أبيهم حيث يلاحقون ابن الشهيد ويحاولون إلصاق التهم الشائنة به لينسى الناس فعلة أبيهم، لكن الشخصية الوطنية تنتصر في النهاية ويتحقق الاستقلال.

كما واصل العمل الحديث عن تاريخ سورية في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، حيث تتضمن الفترة سنتين تقريباً من عهد الوحدة بين سورية ومصر، وهما السنتان الأخيرتان من عمر الوحدة ومن ثم الانفصال الذي قام في سورية وبعده بسنة ونصف قيام ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣.

ولعب أدوار البطولة فيه: سلمى المصري، وسلوم حداد، وطلحت حمدي، وصباح جزائري، وعابد فهد، وأمل عرفة، ونبيلة النابلسي، وعارف الطويل، ولينا حوارنة، وسعد مينه، وليلى جبر، وزهير عبد الكريم، ونبيلة النابلسي، وديمة الجندي، ومحمد الحريري، وسوسن ميخائيل، وفرح بسيسو، وصباح بركات.

تعاون شعبي

بدوره فإن مسلسل (الرجال والضباب) الذي كتبه رضوان عقيلي وأخرجه جميل ولاية يحكي أحداث الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، ويظهر تعاون مختلف فئات الشعب في مواجهة الاحتلال وتفاعلهم مع النضال.

العمل من بطولة: عدنان بركات، وهاني الروماني، وسلوى سعيد، وتيسير السعدي، ومها المصري، وصلاح قصاص، وأديب شحادة، وبسام لطفي، وعصام عبجي، وأحمد أيوب، ونجاح حفيظ، وأدهم الملا، ومحمد الحريري، وصبحي الرفاعي، وضحى الدبس، وبشار إسماعيل، ومحمد طرقجي، وعدنان عجلوني.

روايتان لـ «حنا مينه»

للروائي الكبير حنا مينه روايتان تحولتا إلى عملين دراميين، أولهما مسلسل «نهاية رجل شجاع» (١٩٩٤) للمخرج نجدة إسماعيل أنزور وسيناريو وحوار حسن م يوسف، ويتحدث عن «مفيد الوحش» ابن القرية الريفي البسيط والقبضاي، الذي شحذته الحياة البسيطة والقاسية وجعلت منه شخصاً قاسي الملامح حاد النظرة، تتطور شخصيته باتجاه تصاعدي ضمن المقاومة الوطنية للاستعمار الفرنسي وفي سجون الاحتلال لتجعل منه وطنياً يحلم بالحرية والحياة، فتتعاظم قوة الوحش بداخله ويتعاظم معها إيمانه بالمقاومة كسبيل وحيد للتحرر، عندها يتحول الفتى إلى أسطورة ليتغنى الجميع بقوته وشجاعته.

ومثل فيه: أيمن زيدان، وسوزان نجم الدين، وآندريه سكاف، وعبد الرحمن آل رشي، وسعد مينه، وعارف الطويل، وأيمن رضا، وهاني الروماني، وخالد تاجا، ومنى واصف، ونجاح حفيظ، وهدى شعراوي، وعصام عبجي.

وفي رواية حنا مينه الثانية «المصابيح الزرق» (٢٠١٢) مسلسل أخرجه فهد ميري، وكتب السيناريو محمود عبد الكريم، وتدور أحداثه في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ وهي فترة الكفاح السوري ضد الاحتلال الفرنسي من خلال استعراض الأحداث الجارية في تلك الفترة وإلقاء الضوء على عدة شخصيات وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية.

ومثل فيه: سلاف فواخرجي، وأسعد فضة، وغسان مسعود، وسحر فوزي، وزهير رمضان، وآندريه سكاف، وتولاي هارون، وجرجس جبارة، وضحى الدبس، ومحمد الأحمد، وسعيد الآغا.

البيئة الشامية

ولم تخل أعمال البيئة الشامية من مشاهد الصمود ضد العدوان، ومنها «باب الحارة» (الأول عام ٢٠٠٦) للمخرج بسام الملا، ومثل بأجزائه السبعة عدة جوانب اجتماعية وسياسية مهمة من خلال التكافل الاجتماعي، وصلة الرحم وانتصار الخير على الشر، وقوة ومتانة الأسرة، وتظهر فيه مظاهر الالتحام والمحافظة على العرض والشرف، ويعكس واقع الحارة السورية وصمودها ومقاومتها للاحتلال الفرنسي، وهو من بطولة: عبد الرحمن آل رشي، وعباس النوري، وصباح جزائري، وميلاد يوسف، وأمية ملص، ومحمد قنوع، ووائل شرف، ووفاء موصللي.

وأيضاً «طاحون الشر» بجزأيه (الأول عام ٢٠١٢) من تأليف مروان قاووق وإخراج ناجي طعمي، ويرصد العمل فترة الاحتلال الفرنسي في سورية، ومعظم حكاياته شعبية اجتماعية لكنه يتضمن خطاً سياسياً هو النضال ضد الاحتلال من الثوار في تلك الفترة، وهو من بطولة: منى واصف، ورفيق سبيعي، وبسام كوسا، وسليم كلاس، ورنا شميس، وليليا الأطرش، ووفيق الزعيم، وأمية ملص، وسحر فوزي، ومحمد خير الجراح، ولينا حوارنة، ولمى إبراهيم، ومرح جبر.

كما أن مسلسل «الزعيم» (٢٠١١) من تأليف وفيق الزعيم وإخراج مؤمن الملا، ويتناول حقبة زمنية واسعة مرت بها مدينة دمشق من عام ١٩١٨، قبل احتلالها من الفرنسيين وحتى عام ١٩٤٨، ومثل فيه: خالد تاجا، ومنى واصف، وسليم صبري، وثناء دبسي، وأمل عرفة، وعبد المنعم عمايري.

وبالعودة إلى الوراء، نجد أن مسلسل «أبو كامل» (١٩٩١) من تأليف فؤاد شربجي وإخراج علاء الدين كوكش تناول فترة الاستعمار الفرنسي على سورية، وعكس البيئة الشامية التقليدية من خلال قصه رئيسية تدور حول «أبو كامل» وحكايات جانبية عن الوطنيين، وحلم الثورة من جهة وأطماع البعض بالمناصب من جهة ثانية، لكن الجزء الثاني تحول في طريقة تعاطيه مع فترة الاحتلال بالتركيز حول آثار الاحتلال على الحياة الاجتماعية.

ومثل فيه: أسعد فضة، ووفاء موصللي، وعباس النوري، ومرح جبر، ويوسف حنا، وصباح عبيد، وعبد الفتاح مزين، وملك سكر، وحسن دكاك، وسلوم حداد، وعدنان بركات، ومنى واصف، ونزار شرابي، وتيسير إدريس.

أغنيات وطنية

بالانتقال إلى الأغاني التي قدمت خصيصاً لهذه المناسبة، تبرز ثلاث أغنيات في العصر الحديث، أولها أطلقها مصطفى الخاني في يوم الجلاء قبل خمس سنوات، واستعار من شخصية «النمس» في «باب الحارة» عباراته.

وتحمل الأغنية عنوان «لعيونك يا شام» كتبها ولحنها بنفسه، ويقول في مطلعها «هلا والله، أي والله، حي الله، لعيونك يا عقيد، يا كبير هالرقبة سدادة، والعين بالدمع للغالي مدادة... عقيدنا منحبك، ونحن يلي الله حامينا».

وفي العام الذي يليه أصدر الخاني أيضاً أغنية ثانية بعنوان «قسم الوطن» بمشاركة المخرج نجدة أنزور وكلمات محمود عبد الكريم.

أما الفنان الراحل والكبير عبد الرحمن آل رشي فقدم أغنية خاصة للجلاء بعنوان «أنا سوري آه يا نيالي»، حيث يقول فيها « لالي لالي لالي، ياعلمنا لالي بالعالي، تحت جناحه أنا بتفيا أنا سوري آه يا نيالي، رجال الثورة هالأبطال الشمس اللي بتسطع وما بتنطال، جبر فرنسا ع الترحال، فدا العرب روحي ومالي».

وفي مقطع آخر «صد فرنسا بالمقلاع وقاله يا محتل اطلع، بيي وجدي قالوا سماع، تراب الوطن ع الروح غالي».

وفي العصر السوري القديم، كان نشيد «نحن لا نرضى بالحماية» الذي نظمه ولحنه الموسيقي السوري مصطفى الصواف، ونشيد «يا ظلام السجن خيم» الذي كتبه الشاعر والصحفي السوري نجيب الريس خلال اعتقاله من قوات الاحتلال الفرنسي في سجن جزيرة أرواد سنة ١٩٢٢ ولحنه الموسيقي أحمد الأوبري وغناه صالح المحبك.

ولحن الموسيقار محمد عبد الوهاب قصيدة «سلام من صبا بردى» للشاعر أحمد شوقي في أعقاب عدوان ٢٩ أيار سنة ١٩٤٥ الذي كان آخر فصل في الجرائم التي ارتكبها الاحتلال بحق الشعب السوري.

وفي مرحلة ما بعد الجلاء ظهرت مجموعة من الأغاني الوطنية، منها قصيدة «جلونا الفاتحين» للشاعر بدوي الجبل ولحن الموسيقي محمد محسن وغناء المطربة سعاد محمد، وقصيدة «يا عروس المجد» للشاعر عمر أبو ريشة ولحن اللبناني فلمون وهبي وغناء المطربة سلوى مدحت.

وجاءت بعدها أغنية «مرحب هلا عيد الجلا» للفنان رفيق سبيعي من نظم وألحان الفنان شاكر بريخان، و«عيد الجلاء» من نظم الشاعر فوزي المغربي وألحان وغناء نجيب السراج، فضلاً عن مساهمة المطرب الراحل فهد بلان بأغنيتين في هذه المناسبة هما «سباع الفلا» و«حكاية جدي».

وهناك مساهمة للفنان الشعبي سلامة الأغواني في هذه الأغاني وخاصة التي هاجم فيها المستعمر الفرنسي عندما قال «الأرض أرضنا والبيت لأبونا وبأيا عين جايين تنهبونا».

لم تخل أعمال البيئة الشامية من مشاهد الصمود في زمن العدوان

من مسلسل «المصابيح الزرق»

من مسلسل «الزعيم»

من مسلسل «أيام الغضب»